

تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين

م . د . حيدر جاسم الرويعي

قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة القادسية

شهد الشرق - على مر العصور التاريخية - توافد أعداد كبيرة من الرحالة الأوربيين ، حاولوا فك طلاسمه وكشف أسرار ه ، لما شكله من غموض وسحر ، ومع تعدد الدراسات التي تناولت الرحالة الأوربيين ، إلا أنها أهملت جوانب مهمة وأساسية لتلك الرحلات ، يأتي في مقدمتها تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلالها . ومن جانب آخر ، افتقارها للرؤية الشاملة ، بسبب صعوبة الإحاطة والاطلاع على تلك الرحلات كافة ، وتداخلها خلال المراحل التاريخية المتعددة ، ومن هنا اكتسب الموضوع أهميته ، فتم تقسيم الدراسة التي اعتمدت على عدة مصادر أصيلة للبحث ، في مقدمتها كتابات ومؤلفات الرحالة بلغاتها الأصلية، وبعضها مترجم للعربية ، إلى مقدمة وثلاثة محاور، كل مرحلة من مراحل هذه الرحلات مثلت محوراً من محاورها، الأولى وفيها بدأ الرحالة الأوائل باستكشاف الشرق، العالم المجهول، وذلك من خلال اهتماماتهم بالكون وفلسفته، والثانية تطور فيها الفكر الأوربي، إلى مرحلة عادت به إلى الوراء، وهي مرحلة العصر الوسيط أو ما عرف بعصر الإيمان، والتي أصبح الشرق فيها عدواً ومنافساً، بعد أن توسعت الحضارة العربية الإسلامية، واكتسب فيه المصطلح المزدوج (غرب/ شرق) معنى أيديولوجياً، لارتباطه مع المزدوج (الأنا/ الآخر)، والمرحلة الثالثة، تحول فيها الشرق إلى ساحة للتنافس السياسي والاقتصادي والديني، فتجول الرحالة الأوربيون في الشرق على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم وأهدافهم، وتداخلت السياسة مع الدين والاستكشاف، وتميزت كل مرحلة من هذه المراحل، بميزات معينة، كونت كتابات الرحالة في كل منها، الأساس الذي ارتكزت عليه صورة الشرق في أوربا، والمزاج العام السائد لشعوبها.

التوثيق من قدرة على سد الكثير من الثغرات،
التي تشكلت وسببت إشكالية واضحة في

تعتبر الرحلات وكتابات الرحالة مصدراً مهماً
من مصادر دراسة التاريخ، لما لهذا النوع من

الأوروبيين، وكشف النقاب عن المجهول من الطبيعة والبشر، فأسهم العديد منهم بإيجابية، في إيجاد قاعدة معلوماتية عن الشعوب الشرقية، في وقت قل فيه التدوين التاريخي لبعضها بشكل ملحوظ، وفي القرون اللاحقة، تحولت جهود بعض الرحالة إلى مقدمات لفتوح استعمارية، وابتعدت عن روح الكشف والعلم، وعلى الرغم من تعدد دوافع الرحالة، سواء كانت معلنة أم غير معلنة، فإن هناك مجموعة من الصفات قد اشتركت بها كتاباتهم، أبرزها دقة الملاحظة، والوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات، والحرص على التمييز بين المشاهدة على أرض الواقع والرواية نقلاً عن الغير، وقد تحولت هذه المواصفات إلى قواعد مهمة وأساسية في منهجية البحث الميداني، وخصوصاً في مجال الدراسات الإثنوغرافية^(٥)، تبعاً لما تقدم، كان لزاماً على الباحثين في هذا المجال، الاطلاع على أكبر عدد ممكن من كتب الرحلات، لفهم طبيعة هذا النوع من التدوين، والخلفية الفكرية والدينية والمذهبية، التي تعامل بها الرحالة مع ما صادفهم في الشرق، فضلاً عن ذلك، فإن دراسة هذا النوع من التدوين، لا تقتصر على دراسة صاحب الرحلة والمناطق التي جابها، بل تشمل أيضاً الوضع الإقليمي والدولي المعاصر لزمان الرحلة، لإيجاد تصور أشمل من الناحية السياسية، لتأثيرها المهم على الرحالة، وبالتالي فهم أعمق من الناحية النفسية لوصف اللوحات الفسيفسائية التي صوروها، وللرؤى والأفكار التي نقلوها إلى مجتمعاتهم، والخروج بنتائج أكثر واقعية، في

الدراسات التاريخية، والرحلات جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا^(١)، الذي تعود جذوره إلى آلاف السنين، فالمعرفة الجغرافية ذات أصول عريقة، تعود إلى أقدم حضارات الإنسان، وعمر الجغرافية كموضوع مميز الشخصية يعود إلى ٢٥٠٠ سنة، وتجدر الإشارة إلى أن الفكر الجغرافي الحديث، هو وليد جهود فلاسفة الجغرافية، وخالصة أبحاثهم خلال القرنين الماضيين على وجه التقريب^(٢)، والذي وضع أسسه البابليون في بلاد ما بين النهرين، والفينيقيون الذين امتهنوا التجارة البحرية، ثم أخذها الفلاسفة اليونانيون ونسقوه وزادوا عليه، ثم وصل إلينا عن طريقهم^(٣)، فحافظ العرب على التراث الإغريقي وترجموه ثم نقلوه إلى أوروبا، وظهرت إلى الوجود أسماء العديد من المؤلفات البدائية والمسالك والممالك، على أيدي الجغرافيين العرب أمثال الكلبي، واليعقوبي، والبلاذري، وابن خرداذبه، وابن رسته؛ والمعاجم الجغرافية - اللغوية مثل ياقوت الحموي، والحميري، والكتب الجغرافية الموسوعية مثل ابن جبير وابن بطوطة وغيرها...^(٤). لذلك كان من المهم في الدراسات التاريخية، الاهتمام بشهادات وانطباعات الرحالة وملاحظاتهم التي سجلونها في رحلاتهم للمناطق التي يمرون بها، لما تضمنه هذه الكتابات من فوائد ومعلومات تاريخية واجتماعية وتراثية، فأخذ هذا النوع من التدوين حيزاً واضحاً في كتابة التاريخ، وخصوصاً ما يتعلق منها بالشرق، لأنه مثلاً في العهود السابقة عالماً خفياً، على الغرب أن يستكشفه، ويفهم السحر الذي يولده في نفوس

الدراسة، المنطقة التي شهدت أوسع وأقدم وأعرق صراع مع أوربا، دينياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً، وهي ما تعرف بالشرق الأدنى والتي كانت " ذات يوم قد مثلت بالنسبة لأوربا التآني والاعتراب الصامتين، فكان الإسلام العدائية الهجومية بالنسبة للمسيحية الأوربية، ومن أجل التغلب على ثوابت مهيبة كهذه، كان على الشرق أن يعرف، ثم يعاد خلقه على أيدي الباحثين...." (٦).

– التقسيم الزمني للرحلات:

كان الشرق ذو الأثر المهم حضارياً وإنسانياً، والمتنوع قومياً ودينياً، وما زال قد شكل منذ قرون عديدة وجهة للرحالة والمستكشفين، وسواء كان ذلك بقصد استكشافه وتسجيل المدونات عنه، أم باعتباره ممراً حيويًا بين الشرق والغرب . والحقيقة المؤكدة، أن الرحلات التي مر أصحابها بالشرق، لم تقتصر على فترة زمنية محددة ولا على جنسية معينة، وإنما امتدت من القرون السابقة للميلاد وحتى التاريخ الحديث، فالرحلة بوصفها حركة تفاعلية بين الحضارات، لتوفر عنصر الاختلاط بين الناس والشعوب، برزت كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، وهي قديمة قدم الإنسان، وإن اختلفت الدوافع وتباينت وسائل السفر، لذلك فإن عملية حصرها أو تقسيمها عملية ليست باليسيرة، لعدم وجود إحصاء دقيق للرحالة من حيث العدد والزمن، هذا فضلاً عن أن العديد من الرحلات، قد تم نشرها في كتب أو على شكل مقالات في بعض الدوريات العربية

دراسة الحدث التاريخي المعاصر للرحلة. من هذا المنطلق، جاءت هذه الدراسة – التي تم اختصارها لضرورات النشر – لوضع الأطر الزمنية لرحلات الأوربيين للشرق، وفقاً لطبيعة الظروف المحيطة، والأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية في أوربا، وقد يتبادر إلى الأذهان تساؤل له مبرراته، لماذا الأوضاع في أوربا وليس في الشرق؟ والإجابة واضحة وبسيطة، فالغرب لم ينظر إلى الشرق في مختلف العصور، بمنظار التكافؤ في مختلف المجالات، بل بمكانته الخاصة في التجربة الأوربية، بوصفه موضع أعظم مستعمراتها وأغناها وأقدمها، على الرغم من أسبقيته الحضارية، وكونه مصدر حضاراتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي، أما بالنسبة لتحديد مصطلح الشرق، فهو متعدد كما هو معلوم، أدنى وأوسط وأقصى، وبغض النظر عن مدى قناعاتنا بهذه التسميات والتقسيمات، كونها تسميات لم يكن لنا رأي وموقف من ظهورها واستخدامها، وحتى لو كان للشرقي موقف محدد منها، فلا أعتقد أنه يمتلك من القدرة والإمكانية على تغييرها، كونها تجذرت في المؤلفات التاريخية والاستراتيجية، من قبل المؤلفين في الشرق والغرب على السواء، حتى أضحت من المسلمات، ولا يمتلك من يعترض عليها إيجاد بديل مناسب لها، وحتى إن استطاع ذلك، فهو غير قادر على إجبار الغربيين أفراداً ومؤسسات بحثية وأكاديمية على استخدامها، لما تمتلكه من إمكانيات كما أسلفنا، وللعقلية الغربية الفوقية في التعامل مع ما هو شرقي، والمقصود في هذه

الثلاث أوروبا وآسيا وليبيا، والتي كانت تحيط بها ثلاثة بحار رئيسية هي كل من *Mare Atlanticus* جهة الغرب، و *Mare Erythraeom* في الجنوب، وأخيراً بحر *Mare Erythraeom* في الجنوب الشرقي، كما حددت الخريطة المذكورة، المنطقة الواقعة شمال وشمال شرق أوروبا وآسيا، باعتبارها مناطق مجهولة^(٩)، كما تحدث هيرودوتس عن نشاطات الشرقيين واهتماماتهم الاستكشافية، فتحدث عن البعثة الفينيقية التي أرسلها نخلو فرعون مصر، الذي كان معاصراً ومنافساً للملك نبوخذ نصر حوالي ٦٠٥ ق.م، والمعروف باهتماماته الجغرافية، ومما يذكر أن اسم المحيط الأطلسي قد ورد لأول مرة في الحديث عنها^(١٠).

أما زينفون *Xenophon* (٤٣٠-٣٥٤ ق.م) السياسي والمحارب والفيلسوف اليوناني، الذي اشتهر بمغامرته العسكرية، التي قاد فيها عشرة آلاف رجل من المرتزقة، من اليونان وبعد مسيرة طويلة عبر آسيا الصغرى إلى سواحل سوريا، والمسالك الرملية شرق نهر الفرات إلى العراق^(١١)، لتقديم المساعدة لملك بلاد فارس كورش *Cyrus* الملقب بالصغير (٤٢٠-٢٠١ ق.م) ضد أخيه أردشير الثاني *Artaxexes II* (٣٧٩-٣٨٣ ق.م)^(١٢)، بعد أن انتصر في موقعة *Cunaxa*^(١٣) على نهر الفرات، أثناء عودته إلى اليونان بمن بقي من حملته، بادئاً بمنطقة بابل صاعداً مع نهر دجلة إلى آسيا الصغرى، وقد سجل كل ما شاهده في حملته ذهاباً وإياباً في كتابه الشهير (الصعود

والأجنبية، إلا أن هناك رحلات لم تنشر، وإن نشرت فهي لم تصل لأيدي الباحثين، والبعض من هذه الرحلات مفقود، لذلك كان اعتمادنا على مجموعة من كتب الرحالة باللغة الإنكليزية ومجموعة أخرى مترجمة للعربية، وعلى بعض الدراسات والمقالات الحديثة، التي وجدت فيها إشارات إلى بعض الرحلات في مراحل زمنية مختلفة، كان يندر فيها ذكر الرحالة، وخاصة في العصر الأوربي الوسيط وما قبله، وبالإمكان تقسيم الرحلات إلى الشرق عموماً إلى ثلاث مراحل:

١ - مرحلة الاستكشاف المبكر:

يمثل هذا الدور ما يعرف بالرحالة الأوائل، وفيه أسماء معروفة في مجال التاريخ، ومن أبرز هؤلاء رحالة من الطراز الأول، واسع المعرفة والثقافة هو المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس *Herodotus* (٤٨٤-٤٣٠ ق.م)، الملقب أبو التاريخ، والذي زار قارتي آسيا وأفريقيا، وسجل ملاحظاته عن المناطق التي زارها في كتاب عرف باسم (تمحيص الأخبار)، وإذا كان هذا الكتاب هو أول مصنف في التاريخ، فهو كذلك أول مصنف في الجغرافيا البشرية، لأن هيرودوتس كان يهتم باليابس والجغرافيا البشرية، ووصف اليابس أكثر من اهتمامه بالجغرافيا الفلكية^(٧)، وفي كتابه (التواريخ)، حرص على تقديم معلومات عن حوالي ٥٠ شعباً من خلال رحلاته وقراءاته، وطرح فكرة التنوع بين الشعوب في مختلف النواحي^(٨)، وقد قدم أول خريطة للعالم المعروف آنذاك، وذكر فيها القارات

في الجغرافيا البشرية في القرن التاسع عشر^(١٧)، فلاحظ انتشار الكثير من الظواهر الطبيعية^(١٨)، وقد زار العراق وتجول فيه أثناء حكم أغسطس August (٢٦ق.م-١٤م)، وقدم وصفاً لبلاد ما بين النهرين في كتابه السادس عشر^(١٩)، كما تحدث عن الأكراد في مصنفه الجغرافي، وأطلق عليهم اسم *Kyrtioi*، وأشار إلى بابل^(٢٠) قائلاً: " لقد صارت المدينة العظيمة صحراء"^(٢١)، وعلى الرغم من أن جغرافية سترابو احتوت على خريطة العالم المعروف آنذاك، فإن أساس أول خريطة مطبوعة عن المنطقة، والتي طبعت في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، وما تلاها من خرائط خلال ثلاثة عقود، يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، أي إلى كتاب "الجغرافيا" للعالم الجغرافي كلاوديوس بطليموس *Claudius Ptolemy*، الذي جاء إلى المنطقة بعد قرنين من الزمان من رحلة سترابو، فهذا الكتاب احتوى، حسبما يؤكد الباحثون، على نص مكتوب وملحق به ٢٧ خريطة، إلا أن خرائط بطليموس الأصلية فقدت، ولم يُعثر على أي منها حتى الوقت الحاضر^(٢٢)، كما ورد ذكر العديد من مدن بلاد الشرق الأدنى في كتابات المؤرخين القدماء، فهذا ديودورس الصقلي *Diodorus of Cecily* مثلاً كتب في موسوعته المعروفة بـ "مكتبة التاريخ *Bibliotheca historica*" عن تاريخ وثقافة الحضارة المصرية القديم في المجلد الأول، وفي المجلد الثاني، كتب عن الحضارة الآشورية، وتاريخ الشام وبلاد الرافدين وتاريخ الهند وشبه الجزيرة العربية، وفي المجلد الثالث عن شمال إفريقيا^(٢٣).

Anabasis) أو تفهقر العشرة آلاف جندي^(١٣)، وفي عهد السيادة الرومانية، أسهمت الحروب البونية *Punie Wars* بين الرومان والقرطاجيين في القرن الثالث قبل الميلاد، بتوجيه الحملات الاستكشافية نحو البحر المتوسط الغربي، وأخذ الرومان بتوسيع أراضيهم نحو الشرق، وزيادة معارفهم عن المناطق التي احتلوها، لتشمل بالتدريج أراضي الإمبراطورية التي فتحها الإسكندر الأكبر، وقد رافق جيش القائد الروماني سكيبيو *Scipio*، الذي انتصر على قرطاجنة في معركة زاما *Zama* سنة ٢٠٢ ق.م، المؤرخ اليوناني بوليبيوس *Polypus*^(١٤)، صاحب الاهتمامات الجغرافية، الذي أرسله سكيبيو في رحلة استكشافية على طول الساحل الشمالي الغربي لإفريقيا^(١٥)، حتى وصل إلى بلاد ما بين النهرين، وتحدث عن سكانها^(١٦).

وكما استلم الإغريق التراث الفينيقي الحضاري، فقد ورث الرومان ما أنتجته الحضارة الإغريقية، فنبغ منهم المؤرخ سترابو *Strabo* (٦٣ق.م-٢٤م)، الذي رافق الحملة الرومانية بقيادة أوليوس جالوس *Julius Jalus*، التي توغلت في الجزيرة العربية سنة ٢٥ ق.م، وذلك بهدف السيطرة على تجارة القوافل، ومراكز التجارة في جنوبي الجزيرة العربية، الواقعة على الطرق البحرية التي كانت تربط أوروبا بالهند، مصدر الكثير من المنتجات التي كانت تستوردها أسواق أوروبا، ويعد واضع الجغرافيا الإقليمية أو السياسية، ووصف البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، وسبق في كثير من الآراء، من كتبوا

٢ - دور الرحلات الدينية:

وتبدأ هذه المرحلة بعد حادثة محاولة صلب المسيح (ع) ، إذ قام تلاميذه وحواريوه بالسفر إلى مختلف الأصقاع، من أجل نشر دعوة المسيح بين البشر بناءً على أوامره^(٢٩)، فكان التبشير بالمسيحية، أحد الأسباب المهمة لقيام العديد من الرحلات إلى بلاد الشرق، إلا أن التطورات الهامة، التي جعلت من كنيسة روما مركزاً مهماً من مراكز القوى، وسعيها للتفوق على القوى الأخرى، جعل من الرحلات الدينية، إحدى الوسائل الفعالة لتحقيق هذا الهدف، وبالإمكان تقسيمها إلى ثلاث مراحل - متقاربة زمنياً إن لم تكن معاصرة لبعضها أحياناً - بحسب الأهداف والغايات التي ميزت رحلات كل مرحلة منها وهي:

- مرحلة تحقيق سيادة كنيسة روما العالمية الشاملة الدينية والدنيوية، من خلال أدوات ووسائل منظمة في عالم يفتقر إلى إمكانيات الصمود بوجهها^(٣٠)، فتوجهت الحملات لنشر المسيحية نحو الغرب بين الوثنيين، قاصدة الجزر البريطانية، ونحو الشمال باتجاه شبه الجزيرة الاسكندنافية^(٣١)، أما للشرق، فتنوعت وتعددت الرحلات من أدناه، الذي استقبل بعثة المغرب سنة ١٢١٩م، إلى أقصاه حيث بدأت مرحلة التأسيس فيه لانطلاق مشروع جديد لاحق، فقد عملت البعثات الرهبانية في بادئ الأمر، على نشر الرهبانية في الشرق، فكانت نشاطات الإخوان الرماديين *Friars Minor*، الذين أقاموا مراكز للقساوسة في إمبراطورية المغول، وكانت رحلة

إن الملاحظ على كتابات هذا الدور، انعدام الدقة والوضوح، لأنهم كانوا السباقين للكتابة في المجالات التي خاضوا فيها، فعلى الرغم من أن اكتشاف أراضٍ جديدة في مناطق نائية، كان بالنسبة للإغريق مثار دهشة بالغة، إلا أن اهتمامهم لم يكن محصوراً في النشاط الكشفي، بل كانت البحوث الجغرافية النظرية، مستحوذة على كثير من اهتمامهم، ومثال ذلك البحوث المتعلقة بأصل الأرض وشكلها وحجمها ومركزها في الكون^(٢٤)، كما نلاحظ أن الكثير من بين من كتبوا في هذا المجال، أناس كانوا مرافقين للحملات العسكرية، وكتبوا انطباعاتهم بعد العودة إلى بلدانهم، مثل حملات الإسكندر المقدوني *Alexander the Great* (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) الذي توفي ببابل سنة ٣٢٣ ق.م، وتأتي أهمية حملات الإسكندر في أنها لم تكن حربية فقط، وإنما كانت علمية أيضاً، إذ ضمت مهندسين وجغرافيين ومساحين^(٢٥)، والجدير بالذكر أن رحلات هذا الدور لم تقتصر على الرحالة الغربيين، بل كان للشرقيين أيضاً نشاطات استكشافية، نذكر منها على سبيل المثال ما قامت به قرطاجنة من محاولات كشفية، تمثلت ببعثتين للقائدين هيميلكون *Himilcon* وهانون *Hanon* صوب شواطئ أوربا الغربية، وشواطئ غرب أفريقيا وحتى خط الاستواء سنة ٥٠٠ ق.م^(٢٦)، أما في العصر الهلينستي^(٢٧)، فقد كانت الكتابات الوصفية أكثر دقة مما سبقها، حتى أنها وصفت بمرحلة المشاهدة والقياس^(٢٨).

خاصة^(٤٠)، أما بالنسبة للكنائس البروتستانتية، فقد كان نشاطها التبشيري متأخراً بحكم نشأتها في القرن السادس عشر وما تلاه^(٤١).

وصفت العصور الوسطى بأنها عصور الإيمان، سواء في الغرب المسيحي أم الشرق الإسلامي، وسيطرت الناحية الدينية على عقول الناس خلال تلك المرحلة، فظهر عدد كبير من الحجاج القادمين إلى الأراضي المقدسة، عكفوا على تسجيل رحلاتهم التي وصفوا فيها جغرافية الأرض المقدسة وسكانها، أصبحت بمثابة دليل سياحي لمن يرتاد تلك المناطق^(٤٢)، إلا أن المؤكد أن رحلات الحج هذه لم تكن يسيرة وممكنة، إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين *Constantine* (٣٠٩-٣٣٩م) الذي اتبع سياسة التسامح مع المسيحية، وباقي الأديان في الإمبراطورية الرومانية، ومن أقدم هذه الرحلات رحلة القديس جيروم *Jerome* (٣٤٧-٤٢٠م)^(٤٣) التي وصفها برسالتين، إلى نساء يدعوهن إلى القيام برحلة الحج، والتكفير عن الذنوب، والتعبد في الأماكن التي ولد وعاش فيها السيد المسيح (ع)، لما لها من قدسية، فتزايد عدد الرحلات، وكثرت المؤلفات التي تتحدث عن الحج والطرق المؤدية إلى الأراضي المقدسة، نذكر منها على سبيل المثال رحلة سايولف *Saewulf* إلى الأراضي المقدسة^(٤٤)، ورحلة دانيال الراهب *Danielle* *The Monk*، الذي رافق بلدوين الأول *Baldwin I* في حملته ضد إمارة دمشق، وفي زيارته إلى كنيسة القيامة، وألف كتاباً عن تفاصيل هذه الرحلة، والأماكن التي مر بها^(٤٥).

جون مونت كورفينو *John Monte Corvino* إلى الصين، في نهاية القرن الثالث عشر باكورة هذه النشاطات^(٣٢)، وتلتها رحلات أودوريك دي بوردونون *Odoric de Pordenon* (١٢٦٥-١٣٣١م)^(٣٣).

- مرحلة البدء بمشروع التحالف البابوي - المغولي للسيطرة على الشرق، إذ حدث نشاط دبلوماسي كبير من أجل عقد حلف بين الطرفين^(٣٤)، وقد تزامنت هذه المرحلة مع سابقتها تقريباً، والتي وضع فيها الحجر الأساس لتنفيذ هذا المخطط، فاتجهت رحلات قسم كبير من الرهبان نحو آسيا الوسطى، وقاموا بدور مؤثر في الاتصالات بين البابوية والمغول، من أجل استعداد هؤلاء على العرب المسلمين، لغرض إنقاذ المملكة الصليبية في الأراضي المقدسة^(٣٥)، ومن أبرز الرحلات التي خصصت لهذا المحور كانت رحلة الراهب الدومنيكي أسكلين اللومباردي *Asklin of Lumbardea*^(٣٦)، ورحلة الراهب الفرنسي *William of Rubruck*، الذي حمل رسالة من الملك الفرنسي الصليبي لويس التاسع^(٣٧).

- مرحلة السعي لتحقيق وحدة الكنيسة، إذ أن الانشقاقات التي حدثت في الديانة المسيحية، جعلت الكنيسة تنقسم إلى شرقية وغربية، ومسيحيو الشرق ينقسمون إلى مذاهب شتى أرثوذكس نساطرة^(٣٨) ويعاقبة^(٣٩)، فسعى الفاتيكان إلى توحيد هاتين الكنيستين بزعامة كنيسة روما، وكسب مسيحيي الشرق إلى المذهب الكاثوليكي، وقد تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في دراسة

الأندلسية^(٥٠)، ومن الرحلات الدينية الأخرى إلى الشرق، ما اتصل منها بحج الحجاج الروس المسلمين، إلى الأراضي المقدسة في نجد والحجاز، فقد تكونت ثلاث طرق رئيسية للحج، والمار منها بالعراق كان الطريق المؤدي إلى ما وراء القفقاس (أرمينيا وأذربيجان وجورجيا)، والقسم الشمالي من إيران عبر كرمنشاه، ومدينة خانقين إلى بغداد، والاتجاه نحو كربلاء والنجف، ثم رمال الجزيرة العربية إلى مكة^(٥١).

والملاحظ عن رحلات العصر الوسيط، وعلم الجغرافيا بشكل عام، ابتعادها عن الأسس العلمية المنطقية، ومرد ذلك يعود إلى محاولات علماء المسيحية تفسير الظواهر العلمية، بحسب التفسير الحرفي للكتب السماوية، وإن لم تكن هذه الحال عند علماء المسلمين^(٥٢)، ولم تقتصر نشاطات المبشرين، على رحلاتهم الخاصة بهم فقط، بل إن العديد من الرحلات الاستكشافية والتجارية في القرون اللاحقة، كانت تضم بين أفرادها، رجال دين مبشرين بين الأمم وسكانها الأصليين، وفي أواخر العصر الوسيط، بدأ المجتمع الأوربي يشهد نوعاً من النهضة واليقظة، تمثلت في مجالات متعددة، كان من أكثرها إثارة للاهتمام العناية باكتشاف بلاد وطرق جديدة، إذ إن الرحلات والاستكشافات الجغرافية، قد أحدثت اتساعاً في المنظور المكاني للإنسان، الأمر الذي أثر في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وفي هذا الشأن اتفق المفكرون جميعهم - على الرغم من تباينهم في وجهات النظر - على مناهضة فلسفة العصر الوسيط اللاهوتية، التي أعاقت

ولم تقتصر مؤلفات رحلات هذا الدور الدينية على الرجال فقط، فقد كان للنساء أثر مهم اختلف عن باقي النتاجات من أوجه عدة، وأبرز هذه النتاجات تمثلت في رحلة ايو فروزين *Euphrosine* الأميرة الروسية^(٤٦).

هناك نوع من الرحلات يتصل بالجانب الديني، إلا أنه لم يكن بالضرورة مسيحياً، فالحج للأراضي المقدسة في فلسطين، ليس حكراً على المسيحيين الغربيين وحدهم؛ إذ هي مقدسة أيضاً عند مسيحيي الشرق، والمسلمين واليهود، وهناك إشارات إلى أن العديد من اليهود، قد زاروا بيت المقدس في فترات مختلفة^(٤٧)، ومن هؤلاء، برز من رحالة هذه المرحلة بنيامين التيطلي *Benjamin of Tudela*، اليهودي الإسباني، الذي زار المنطقة في العصر الوسيط، وتنقل في أرجائها، اليونان، القسطنطينية، بلاد الشام وأراضيها المقدسة في فترة الاحتلال الصليبي، مصر، والعراق حاضرة العالم الإسلامي، وتحدث عن جزيرة العرب وغيرها من المناطق القريبة منها، وقد تنوعت آراء الباحثين حول هذه الرحلة وصاحبها ووقتها^(٤٨)، إلا أنها تميزت بأهميتها الخاصة، والمتمثلة بتسليطها الضوء على أوضاع المناطق التي زارها، السياسية، والاجتماعية، والدينية، والمذهبية والاقتصادية، مع التركيز على اليهود في المنطقة: أعدادهم، وأوضاعهم، وزعاماتهم الدينية، وأبرز شخصياتهم وعلمائهم^(٤٩)، وهذه الرحلة هي الوحيدة التي خلفها بنيامين، وتدل كتابته بالعبرية، على معرفته بالتوراة واللغة العربية وثقافته

فضول العقل الإنساني الجسدية والعقلية والأخلاقية، فالعقل في عصر النهضة، لم يحصر تفكيره في الاهتمام بأمور الفردوس والجحيم، شأن الناس في عصر الإيمان (العصر الوسيط)، وإنما بدأ الناس يهتمون بالعالم المباشر من حولهم، كما إنهم تحولوا نحو التفكير في الأغراض الدنيوية، وهكذا برز ما يعرف بالاتجاه أو المذهب الإنساني (العلمي)^(٥٣)، إلا أن هذا لم يكن يعني بالضرورة، انحسار الرحلات التبشيرية بمفهومها القروسطي، أو حتى الرحلات الاستكشافية المشوبة بروح دينية، وقد أشار البحار بيكافيتا *Pigafitta* بوضوح للنشاطات التبشيرية لرحلة ماجيلان *Magilan*^(٥٤) في القرن السادس عشر: "...اليوم قمنا بتعميد ٨٠٠ شخص من الرجال والأطفال والنساء"^(٥٥)، أما الرحالة البرتغالي بيرو دي كوفيهام *Pero de Koviham*، الذي جاب المدن المطلة على البحر المتوسط والبحر الأحمر منذ سنة ١٤٨٧م، فقد ركز نشاطه في جمع المعلومات عن الحبشة، التابعة للكنيسة الأرثوذكسية المصرية، من أجل التمهيد لانتزاع القدس من المسلمين^(٥٦).

تطور العلاقات بين الشرق والغرب :

تحول التفاعل في العلاقات بين العالمين المسيحي والإسلامي، يأخذ اتجاهاً يميل نحو الواقعية، ولو بوتيرة غير متسارعة، ومراجعة في أحيان متعددة، وقد أوجدت التغيرات المتعددة في هذا التفاعل، مجموعة من المشتركات بين الشرق والغرب، بدأت تأخذ حيزاً في التعامل بين

الطرفين، لم يكن متداولاً سابقاً، فالحضارتان الإسلامية والمسيحية - مقارنة بالحضارات والأديان القديمة في الهند والصين مثلاً - تشاركتا في تراث عام في مجالات عدة مهمة، وبحكم منطقة انتشار الحضارة الإسلامية، في المنطقة نفسها التي انتشرت فيها الحضارة المسيحية أو قريباً منها، تناولت في تراثها مجالات مهمة، أسهمت في تشكيل حضارتها الخالدة، فالفلسفة والعلوم اليونانية^(٥٧)، والديانة والشريعة اليهودية - المسيحية، بحكم امتدادها لهاتين الديانتين السماويتين، جعلت بالإمكان توفير مستوى معين من الاتصال بين المسلمين والمسيحيين، حتى في مجتمعات العصر الوسيط المتعصبة^(٥٨)، وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة القوى الحاكمة الجديدة في الشرق، في فترة ما بعد المغول، في تركيا وبلاد فارس وآسيا الوسطى والهند، امتلكت الاستمرارية والانتظام في هيكلياتها الإدارية، بشكل مختلف عما هو موجود في الإسلام الكلاسيكي، وفي عهد سيطرة الإمبراطورية العثمانية، انسجمت العربية والفارسية والتركية، كأدوات ثلاث لحضارة ذات نمط سياسي فاعل في الشرق^(٥٩)، وأخذت المقارنة حتى في اللغة السياسية في الشرق الإسلامي، ومثيلتها في الدول الأوربية الفاعلة في توازن القوى، توجد مشتركات تاريخية في معجم مشترك، من الكلمات الدخيلة من اليونانية واللاتينية والترجمة الحرفية من العربية، وبشكل أقل، من كلمات ذات أصل عربي في اللغات الأوربية^(٦٠)، هذا الموروث، فضلاً عن التغيرات

عميقة ومتشعبة، فالمدن الإيطالية كانت تسعى جاهدة للإبقاء على الأسواق في مصر والشام مفتوحة بوجهها عن طريق إرسال التجار والسفارات وتعيين القناصل، بهدف المحافظة على الأرباح الوفيرة^(٦٥)، هذا التمثيل الدبلوماسي والسفارات المتتابعة، لم تكن تقتصر على طرف دون الآخر في هذه المرحلة، بل شارك بها الطرفان، فعلى الرغم من أن أوربا لم تكف عن التفكير في الأخذ بثأرها من الإسلام، حتى بداية ونجاح الكشوف الجغرافية، إلا أن الحروب الصليبية من ناحية أخرى، خلفت لونا من العلاقات غير الحرب والعداوة، وهو التجارة والتبادل الدبلوماسي^(٦٦)، فهناك العديد من السفارات والرحلات، التي قام بها مبعوثو السلاطين المماليك إلى أوربا، كسفارة ابن محفوظ في عهد السلطان قايتباي إلى فلورنسا سنة ١٤٨٧م، وسفارة الأمير تغري بردي إلى البندقية، لشراء الخشب وطلب المعونة لبناء أسطول بحري يمكن المماليك من مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر، فقد أدى نجاح البرتغاليين في قهر المراكز التجارية العربية والإفريقية على طول السواحل المطلية على المحيط الهندي، إلى كساد اقتصادي في ثلاث مناطق رئيسية فقدت أهميتها تدريجياً هي: الشرق الأوسط، سواحل شرق إفريقيا، دول حوض البحر المتوسط^(٦٧)، فتغيرت نظرة الأوربيين إلى الشرق، وبدأت طبيعة العلاقة تأخذ منحى جدياً لم تشهده من قبل، فتحول الشرقي إلى الند، ومن أبرز السفارات التي قام بها الأوربيون إلى الشرق،

السياسية - الدينية في أوربا، والتي ابتعدت بالفكر الأوربي، عن العقلية التي واجه بها الفاتيكان وصف رحلة ماركو بولو للشرق، والمتمثلة باتهامه بالكذب، ومطالبته وهو على فراش الموت بإنكار ما رآه، على الرغم من أن إنكار الرحلة ولا إثباتها، لم يعد هو العامل الحاسم في الأمر، إنما ما قامت به الرحلة من عملية تهديم لكل ما يحيط بأوربا آنذاك، قد أثبتت أن أوربا ليست هي مركز العالم، ولا ديانتها هي الوحيدة^(٦٨)، وما حصل على أرض الواقع، من تقلبات في صراع القوى في الشرق، أدى إلى التمييز بين نمطين من التفاعلات: الأول يظهر فيه تحالف مملوكي - مغولي مسلم في مواجهة تحالف مغولي وثني - صليبي، أما الثاني فيظهر فيه تعاون أو تحالف مملوكي - مسيحي بيزنطي أو إفرنجي، في مواجهة التحالف المغولي الصليبي نفسه، وهما نمطان متداخلان ومتزمانان ظهرا في ثلاث مراحل^(٦٩)، فقد بدأت الأهمية السياسية للقاهرة، تتصاعد مع مرور الزمن، حتى صارت العاصمة الفعلية للعالم الإسلامي، في عصر السلاطين المماليك، بعد أن أحيا السلطان الظاهر بيبرس الخلافة العباسية، إحياءً شكلياً سنة ١٢٦١م^(٦٣)، وبعد أن أصبحت موطناً للهاربين من تفاقم الأحوال في مشرق العالم الإسلامي ومغربه على السواء، ولهذا ظلت القاهرة هدفاً للرحالة المسلمين والأوربيين طوال ذلك العهد^(٦٤)، والملاحظ أن العلاقات ما بين المدن والجمهوريات الإيطالية، كالبندقية وجنوه وفلورنسا والمماليك، كانت منذ الحملات الصليبية

ازدهر أدب الرحلات في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، كجانب مهم من جوانب الأدب، الذي لقي اهتماماً واسعاً من جانب القراء، واتخذ الاهتمام بالشرق اتجاهاً آخر، نتيجة للتوسع الاستعماري والتجاري، ونتيجة لما أحدثته الثورة الصناعية، من تكديس الإنتاج وضرورة البحث عن أسواق لتصريفه، ساعد على ذلك اتساع نطاق الصراع البريطاني - الفرنسي، وتحسن وسائل المواصلات بعد اكتشاف البخار، وهذا الدور يشمل الرحلات التي اتخذت صيغاً حديثة، من ناحية استغلال الرحلات لأهداف شتى، وقيام أصحاب الرحلات، بالكتابة وفق منهجية اتسمت بكونها أكثر دقة، وأوسع إدراكاً من الأدوار السابقة، لما توفر من خبرات في هذا المجال، وتوضح لدى الكثير منهم، أهمية العامل الديني والسياسي والعسكري والثقافي والنفسي، والقناعات الشخصية لمؤلفي كتب الرحلات، في تناول شتى الموضوعات، التي تخص الشرق والشرقيين بصورة عامة، وبهذا الخصوص يذكر ويليام ميلر *William Miller*، في حديثه عن رحلات الأوربيين إلى الشرق الأدنى: "إن معظم من كتب عن هذه المنطقة يتعاملون مع الموضوع بروح الانحياز وعدم الحيادية"^(٧٠)، وهذا الكلام فيه الكثير من المصادقية، وكتابات الرحالة تزخر بالأمثلة على ذلك، فالشرقي متعصب، قذر في العادات، متعجرف ويحب السيطرة، ويشرعن العبودية والبغاء وتعدد الزوجات، عديم الذوق لأنه لا يمتلك الصور، ولا يحترم الطبيعة... الخ^(٧١)، إلا إن هذا لا ينفي تناول

نذكر البعثة الفلورنسية إلى القاهرة، والتي اضطلع بها السفير دي لاستوفا *De Lastova* سنة ١٤٨٩م، والذي عاد إلى إيطاليا برفقة بعثة مملوكية يرافقها مبعوث بابوي إلى مصر، كان في طريق عودته إلى روما تتعلق بموضوع الأمير جم^(٦٨)، وفي سنة ١٤٨٩م، أرسل بابا الفاتيكان انوسنت الثامن *Innocent VIII* (١٤٨٤-١٤٩٢م) موفداً له إلى القاهرة، لغرض تأكيد وإبقاء الامتيازات الممنوحة للرهبان الفرانسيكان في جبل صهيون، والتي قد تم تأكيدها سابقاً في السنوات ١٤٢٧م و١٤٦٤م و١٤٧٢م، كما كان سلاطين المماليك، يقومون بإرسال السفارات إلى أوربا، بالاعتماد على رجال الدين المسيحيين، كما هو الحال في سفارة الراهب انطونيو ميلان *Antonio Millan*، أحد رهبان كنيسة القيامة في القدس، الذي أرسله قايتباي إلى ملك نابولي يطلب فيها منه مكاتبة ملك قشتالة، ليوقف هجومه على الأندلس، كذلك سفارة ماورو سان برناردينو *Mauro da San Bernardino* إلى جنوب أوربا سنة ١٥٠١م، بسبب تزايد الخطر البرتغالي، والذي ظهرت نتائجه السلبية على البندقية أيضاً، فقرر مجلس الشيوخ البندقي إرسال السفير بنديتو سانوتو *Benedeto Sanuto* إلى القاهرة في السنة نفسها^(٦٩).

٣ - ازدياد الأهمية الإستراتيجية

والتنافس الأوربي الواسع:

البعض من هؤلاء، موضوع الشرق وسكانه وعاداته وتقاليده، بروح من الموضوعية والوضوح، أما ما يرد من أخطاء أو تفسيرات قد تكون غير دقيقة، فقد يكون مردها إلى عدم الإلمام بالكامل من قبل معظم هؤلاء الرحالة، لنفسيات أبناء المنطقة المتباينة، ومذاهبهم المتعددة، وما إلى ذلك من اختلافات، وقد يكون الاطلاع والفهم الكامل لهذه الاختلافات من الأمور المستحيلة، إلا أن الرحلات المتأخرة زمنياً، أظهرت فهماً وإماماً بالمنطقة وسكانها أكثر دقة مما سبق^(٧٢)، ولعل السبب الأهم في ذلك، يعود إلى تطور وسائل النقل والاتصال، والاطلاع على الرحلات والتقارير والمؤلفات السابقة، التي تناولت الشرق والشرقيين، فتم الاستفادة من مؤلفات الرحالة الأسبق زمنياً بشكل مثالي، من قبل الدول والمؤسسات الأوربية من كافة النواحي، وإثبات ذلك سنتطرق إلى أمثلة تتناسب والمساحة المخصصة لهذا البحث، في سياق الحديث عن هذه المرحلة .

عوداً على بدء، فإن هذه المرحلة تتداخل مع المرحلة التي سبقتها من حيث الزمن، فنرى أن هناك العديد من الرحلات العلمية على سبيل المثال، قد كتبت في القرن السادس عشر مثل رحلة ليونهارت راوولف *L. Rawolf* المخصصة لدراسة الأعشاب^(٧٣)، وكذلك رحلة العالم الدانماركي من أصل ألماني، كارستن نيبور *K. Niebuhr* في القرن الثامن عشر، بمعينة بعثة ضخمة لدراسة الشرق الأدنى في كافة المجالات، السكان، المدن وطرق النقل، الآثار

وجمع المخطوطات، النباتات، المعادن وغيرها، وقد ذكر فيما ذكر من معلومات عن العراق ومناخه وتربته^(٧٤)، ما جعل دوائر السياسة الاستعمارية الألمانية، تتوجه بأنظارها نحو شمال العراق لاحتلاله وإقامة مستوطنات ألمانية فيه^(٧٥)، ولم يقتصر اهتمام الألمان على هذا المجال فقط، إذ أن تزايد اهتمام الدول الاستعمارية بمصدر الطاقة الجديد (النفط) جعل العراق وجهة للعديد من البعثات الجيولوجية والعسكرية والصحفية، خصوصاً وأن هناك من الرحالة من أشار إلى وجود هذه المادة في العراق^(٧٦)، ومنهم الرحالة وعالم الآثار والدبلوماسي الألماني ماكس فون اوبنهايم *Max Von Oppenheim*، والذي ألف كتابين بالألمانية، عن مكتشفاته الأثرية في تل حلف، استفاد منها مخطوطو السياسة الاستعمارية^(٧٧)، فتم إرسال البعثة الألمانية إلى العراق، لدراسة المعلومات المتعلقة بوجود النفط لوضع إستراتيجية مناسبة للاستفادة منه، فأصدرت البعثة تقريرها سنة ١٩٠١م^(٧٨)، وأكدها د. باول روهرباخ *Paul Rohrbach* أحد أساطين السياسة الاستعمارية الألمانية، مشيراً إلى وجود: "منبع من أغنى منابع النفط في العالم بجوار نينوى حيث تمر سكة حديد بغداد برلين"^(٧٩)، وهذا الأمر ينطبق على المؤسسات السياسية الاستعمارية البريطانية، التي تنبعت إلى توافر النفط في المنطقة، من خلال المعلومات التي وردت في كتابات الرحالة الإنكليز، أمثال ج. جاكسون الذي زار كركوك وذكر حفر النفط التي تنتشر بين الصخور^(٨٠)، والرحالة جيمس بكنغهام

معلومات عنها) في خرائطنا^(٨٥)، ولا بد من الإشارة هنا إلى رحلتين قام بهما اثنان من الإسبان إلى نجد والحجاز، هما كل من دومنيكو باديا *Domingo Badia* ١٨٠٣-١٨٠٧م، والذي لبس لباس العرب وتكلم بلغتهم، وأطلق على نفسه علي باي العباسي^(٨٦)، وارسنارثو فرانسيسكو *Orrestarzu Francisco*، والذي كانت له رحلتان، الأولى للمغرب العربي، والثانية للحجاز، للتعرف على البلاد الإسلامية والتجول في بقاعها، وتسجيل الانطباعات عنها^(٨٧). وبعضها علمية لدراسة مراحل وأحداث تاريخية - دينية، كما في رحلة البروفيسور تشارلز كليرمونت كانو *Charles Clermont Ganneau*، برفقة المهندس المعماري ليكوم دي نوي *Lecoumte du Nouy* إلى فلسطين، والتي تحملت نفقاتها ما عرفت بلجنة استكشاف فلسطين *Committee of Palestine Exploration*، وقد عانى المؤلف في هذه المهمة معاناة كبيرة، لقدسية الأماكن في فلسطين وخصوصاً القدس، ومن قبل كافة الطوائف المسيحية على اختلاف أنواعها^(٨٨)، واليهودية^(٨٩)، والإسلامية، والسلطات العثمانية^(٩٠)، وكذلك التدخل الأوربي المباشر لمساندة هذا الطرف أو ذاك^(٩١)، وقد أشار في مواضع عديدة من كتابه الذي صدر بمجلدين إلى صعوبة العمل في الأماكن المقدسة، في ظل الظروف الآتفة الذكر، والتي أجبرته على التكيف معها، واختيار المواضيع التي بالإمكان أن يعمل فيها، بدون إثارة معارضة من قبل أي طرف^(٩٢)، وقد تكون صعوبة العمل لأسباب أخرى

James Buckingham الذي زار شمال العراق سنة ١٨١٦م، وتحدث عن وجود النفط في كركوك والتون كوبري^(٨١)، والبحث المنشور في المجلة الجغرافية البريطانية في سنة ١٨٩٧م، والذي أعده الضابط البريطاني كابتن مونسيل *Monssel* بعد تجواله فيها^(٨٢)، فتبين الخطر الذي يمثله هذا المشروع على المصالح البريطانية، وطرق موصلاتها عبر العراق ومصر^(٨٣)، ولم تقف روسيا موقف المتفرج على هذه التطورات، بل أرسلت بعثة عسكرية برئاسة الجنرال توميلوف *Tommylof*، لدراسة الأبعاد العسكرية لمشروع سكة حديد بغداد - برلين، فأبدت معارضة قوية لهذا المشروع، لما له من نتائج سلبية على الاقتصاد الروسي^(٨٤).

وهذا لا يعني أن كل الرحلات العلمية كانت ميسسة ولتحقيق أهداف استعمارية، بل إن بعضاً منها كان من أجل الكشف العلمي لتحقيق أمجاد شخصية، وإن كان ارتباط أصحابها بدوائر السياسة الاستعمارية، إذ تكون فائدة هذه الدوائر عرضية وأمرأ واقعاً، ونذكر في مجال الرحلات العلمية رحلة الضابط البريطاني ريتشارد بيرتون *Richard F. Burton* الاستكشافية إلى مصر لاستكشاف منابع نهر النيل، والذي اعتبر أول من اكتشف بحيرة تنجانيقا من الأوربيين، ومعظم مؤلفاته لاقت رواجاً واهتماماً لدى علماء الأنثروبولوجيا، وقد ذكر في حديثه عن رحلاته العلمية أن القصد منها كان: " أن أزيل عن الكشوف الحديثة تلك الوصمة التي لحقت بها متمثلة في وجود مساحات واسعة بيضاء (لا

وهي ذكريات لازالت حية قوية وأبدية ولا يمكن محوها من عقلي بأي طريقة كانت^(٩٥)، من جانب آخر، كان لهؤلاء الرحالة العلماء، أثر مهم في توجيهه وتنبه الأوربيين، نحو دراسة الشرق وسكانه وكلما يتعلق به، من خلال التأثير على مراكز القرار، لفتح المعاهد ومراكز الدراسات المتعلقة بالشرق، كما فعل ادوارد زاخاو *Edward Sachau*^(٩٦) (١٨٤٥-١٩٣٠م)، الذي يدان له بالفضل في تأسيس معهد (دراسات الشرق الحديث) في برلين، الذي أرسى دعائم الاستشراق الألماني، وكذلك كان له دور كبير في تأسيس (معهد اللغات الشرقية)، الذي تم افتتاحه عام ١٨٨٧ في برلين^(٩٧).

ارتبط جزء مهم من كتب الرحلات بمهمات دبلوماسية، سواء كانت سرية أم معلنة، لتحقيق أهداف ذات صلة بالتوسع الاستعماري، في عصر اشتدت فيه المنافسة على المنطقة بين الدول الأوربية، وبالإمكان الإشارة هنا إلى أكثر من مؤلف بهذا الخصوص، فالى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي على سبيل المثال لا للحصر، رحلة الضابط البريطاني فورستر سادلير *Forester Sadlier* إلى الخليج العربي سنة ١٨١٩م، والتي جاءت بعد سيطرة القوات التركية، بقيادة إبراهيم باشا على شبه الجزيرة العربية، وذلك لتأمين عملية التبادل التجاري، بين الهند وموانئ البصرة والخليج العربي، وكسب تأييد إبراهيم باشا، لحملتهم على القواسم في رأس الخيمة^(٩٨)، وقد حمل معه رسالة من الحاكم العام للهند، وسيفاً هدية لإبراهيم باشا، وفيها

مختلفة، فالتنافس بين الرحالة لتحقيق أمجاد شخصية ومكاسب علمية، يعد عاملاً مؤثراً في تلك نشاطات الرحالة العلمية، وإذا شملت الرحلة الواحدة أكثر من شخص، من جنسيات أوربية مختلفة، فقد حملت في ركابها تأثيرات الصراعات السياسية والاقتصادية، التي شهدتها الدول الأوربية في تلك المرحلة^(٩٣)، وظهر ذلك جلياً من خلال معاناة البروفيسور الألماني يوليوس اويتنج *Julius Oeting*، المختص بدراسة النقوش السامية في جامعة ستراسبورغ، من رفيقه الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر *Charles Hooper*، التابع للحكومة الفرنسية، والذي حاول إعاقة أعمال اويتنج بثتى الوسائل، إلا أن الأخير تحمل ذلك، لحاجته الماسة لخبرة رفيقه الفرنسي، الذي زار المنطقة سابقاً^(٩٤)، وبعضها كان لتحقيق أحلام الرحالة وأمانهم، كما ظهر ذلك جلياً في رحلة الطبيب الكرواتي فران س. جوندورم *Frans S. Gundrum* إلى مصر في بداية القرن العشرين، وعلى الرغم من علمية هذه الرحلة، إلا أن مفهوم الشرق، وسحره وحكاياته، شكلت حافزاً مهماً له للقيام بها، فذكر جوندورم بهذا الخصوص، أنه قرر السفر للقاهرة، بمجرد علمه بعقد المؤتمر الطبي هناك، ليس لسماع آراء أقرانه الأطباء الشرقيين: "... ولكن لأزور القاهرة، وباقي أجزاء تلك البلاد، التي كنت أسمع عنها الأحاديث منذ طفولتي، وأتذكر ما سرده لنا مدرس الدين ... إن السيدة مريم العذراء هربت بابنها المسيح إلى مصر، وأتذكر الأحاديث عن الأهرامات وعن مدينة كان لها ١٠٠ بوابة، ...

فرنسيين آخرين، تدعو إلى ضرورة تمكين آل سعود من الأفراد بحكم الجزيرة العربية، كما ثيودور لاسكاريس *Theodor Lascariss* وشارل ديدييه *Charles Didier*^(١٠٣).

وإلى لبنان رحلة تشارلز هنري تشرشل والدبلوماسي *Charles H. Churchul*، الدبلوماسي البريطاني الذي قدم لبنان سنة ١٨٤٣م، على رأس بعثة دبلوماسية في عهد الملكة فيكتوريا *Victoria* (١٨٣٧-١٩٠١م)، فاستقر فيها وتعلم العربية ولبس لباس سكاتها، وأصبح لبنانياً إلا في أهدافه ومبادئه، وانكب على فهم اللبنانيين، وانصرف إلى الدراسة وكتابة التقارير وجمع المعلومات^(١٠٤)، وركز على الدروز لتسهيل عملية اتخاذهم ذريعة لبريطانيا، للتدخل في الشأن اللبناني، والتأثير في الصراع بين الدول الأوربية الكبرى الدائر على الساحة اللبنانية^(١٠٥)، وساهم في هذا التوجه ريتشارد وود *Richard Wood*، مبعوث السفير البريطاني في العاصمة العثمانية الأستانة، جون بونسونبي *John Ponsonby* (١٨٣٢-١٨٣٧م) الموظف في السفارة البريطانية، والذي سعى لإبعاد الموارد عن فرنسا، وقطع الصلة بين بشير الشهابي ومحمد علي من جهة، والشهابي واللبنانيين من جهة أخرى، فأخذ يطوف بين القرى الدرزية، متنكراً بزي شيخ درزي يوزع الأموال على السكان، وسعى جهده لحث البطريرك الماروني يوسف حبيش، على الوقوف ضد حليفته فرنسا ومحمد علي، ووعدته بإقامة دولة مارونية في حالة استجابته لمطالبه^(١٠٦)، أما بالنسبة للفرنسيين،

تحدث عن المنطقة وتضاريسها ونباتاتها وسكانها، ولقائه بمشايع بعض قبائلها كسعيد بن سلطان صاحب عمان^(٩٩)، أما الرحلة الأخرى فهي رحلة وليم جيفورد بلجريف *William Gifford Palgrave* البريطاني من أصل يهودي، والدبلوماسي الذي تحول إلى رجل دين، والبروتستانت المتكثك، والسياسي البريطاني، الذي أقنع نابليون بوناپرت بالعمل على نشر المسيحية في نجد والحجاز، واستطاع بلجريف بحكم مؤهلاته اللغوية والطبية والثقافية، أن يكون مقرباً من أفراد البلاط الملكي، مما جعله قريباً من الأحداث، وكل ما سبق ظهر أثره بدرجات متفاوتة في شخصية صاحب الرحلة^(١٠٠)، الذي أرسله نابليون الثالث سنة ١٨٦٢م في مهمة غير واضحة إلى مصر لإجراء مباحثات سرية، ومنها ذهب إلى نجد والحجاز متنكراً بزي طبيب مسيحي شامي، لمعرفة بريطانيا للنوايا الفرنسية في طبيعة النظام السياسي الذي تسعى لإقامته في طريق الهند^(١٠١)، وقد دعا بلجريف إلى دعم الحركة الوهابية في المنطقة، حاله حال المستكشف والكاتب هاري سانت جون فيلبي *Harry St. John Philby*، وعميل المخابرات بمكتب المستعمرات البريطاني، المعروف بالحاج فيلبي بعد إسلامه، والذي حقق نجاحاً كبيراً في مهمته، إلى الحد الذي جعل منه خطيباً في الحرم المكي عن فضائل آل سعود^(١٠٢)، والملاحظ أن الخلاف المعروف بين بريطانيا وفرنسا حول النفوذ في الشرق الأدنى، قد تحول إلى اتفاق في هذه النقطة بالذات، فظهرت آراء ودعوات لرحالة

على المراسلات والمفاوضات الدولية التي حدثت في ذلك الوقت^(١١٠).

ومن الجلي أن فن الكتابة لهذا النوع من التدوين، اتجه نحو المنهجية ووضوح الهدف، مع استخدام أسلوب المقارنة مع الكتابات السابقة والتعليق عليها، فرحلة بلجريف على سبيل المثال خير نموذج لهذا التطور، فقد اندرجت ضمن الأدب الراقي، وكانت دقة ألفاظه ومصطلحاته تغيظ القارئ الانكليزي، وتفصيل الكتاب كثيرة وتشد الانتباه، وتوحي بغزارة مادته، ومن شدة دقته، فقد أبى أن يضيف خارطة وضعها للأماكن التي زارها، إلا بعد عرضها على الجمعية الجغرافية الألمانية، التي شهدت بدقتها ودقة تفاصيلها، ويكفي أن ننقل معاناة مترجم الكتاب في أداء هذه المهمة، التي لم تكن سهلة، بل إنه استعان بأساتذة في اللغات اليونانية، والإيطالية، واللاتينية والألمانية، والأخيرة استعان بسفيرها في القاهرة لإكمال هذه المهمة^(١١١). كما إن في هذه المرحلة، نوعاً جديداً من الرحلات، وهو المخصص منها للتتقيب عن الآثار، والتي سنتناولها لاحقاً بدراسة منفصلة.

مثلت كتابات الرحالة الأوربيين، مصدراً مهماً من مصادر دراسة التاريخ، وقد صورت بحسب المراحل التاريخية المشار إليها آنفاً طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، وزخرت بالعديد من المعارف المتنوعة: ديني، واقتصادي، وسياسي، وتاريخي، وجغرافي، وأدبي واجتماعي... وغير ذلك، مما يجعلها مصدراً للعديد من الباحثين مختلفي الاختصاصات، وعلى الرغم من الجوانب

فقد برز منهم أحد المغامرين ممن سبق وخدم في الجيش الفرنسي، ويدعى الكونت اونفروا *Onfroy*، الذي تعلم العربية في كسروان، وادعى بأنه (مخلص) المسيحيين في الشام، ويطالب بحقه في حكم القدس، كونه ينتسب إلى أحد القادة الصليبيين، فعمل على تأجيج المشاعر الدينية، ولقبه البعض بـ (سر عسكر الفرنسي)^(١٠٧)، الذي حمل العلم الفرنسي، ورفع على رأس كل فرد من قواته شارة الصليب، وأخذ بتوزيع الأموال والسلاح على الثوار^(١٠٨)، كما قامت فرنسا بإرسال العديد من البعثات التبشيرية والاستكشافية إلى سوريا، فأوفدت سنة ١٨٧٨م بعثة الضابط ليون كاهون *Lion Cahon*، الذي دعا إلى تدخل فرنسا لإخراج العثمانيين من الجبل، خصوصاً بعد أن تبين له مقدار الرغبة الجارفة - بحسب وصفه - للعلويين في الجبل لإخراج الأتراك واستبدالهم بالفرنسيين^(١٠٩)، وكان للروس أيضاً الدبلوماسي قسطنطين ميخالوفيتش بازيللي *Constantine M. Basely*، الروسي اليوناني الأصل، والذي عمل مترجماً في الأسطول الروسي في البحر المتوسط، وتدرج إلى منصب القنصل الروسي في بيروت سنة ١٨٣٩م، والمسؤول العام عن جميع القنصليات الروسية في بلاد الشام^(١٠٩)، وقد دون كتاباً عن تلك الفترة التي عاشها في بلاد الشام، سجل فيها مرحلة مهمة من مراحل الصراع الدولي حول لبنان، والانتفاضة التي قام بها اللبنانيون ضد الوجود المصري، وأهمية هذا الكتاب تكمن في أن مؤلفه شاهد عيان على الأحداث، واطلاعه بحكم منصبه،

(٢) للمزيد عن تطور الفكر الجغرافي راجع: صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، (الإسكندرية، ١٩٩٩م) .

(٣) محمد الصياد، "الجغرافيا"، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، (القاهرة، د.ت) : ٣١٣ .

(٤) عماد الدين خليل وفايز الربيع، الوسيط في الحضارة الإسلامية، (عمان، ٢٠٠٤م) : ١٤٢-١٤٣ ؛ وللمزيد، راجع: عبد الفتاح محمد وهيب، مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، جامعة بيروت العربية، (بيروت، ١٩٧٩م)؛ علي عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، (الرياض، ١٩٩٣م) .

(٥) فرع من علم الإنسان، يقدم أوصافاً علمية للثقافات المعاصرة، ويشير المصطلح أيضاً إلى كل ما هو مكتوب أو مصور أو مسجل يقدم مثل هذا الوصف، ومادة الدراسة تتناول جماعة أو مجموعات مختلفة أو شعوباً متجاورة ومقارنة أوجه الشبه والاختلاف سلوك هذه الجماعات، ويتطلب الأمر العمل الميداني والعيش مع الناس ودراسة ثقافتهم وأساليب عيشهم، للمزيد:

<http://anthro.ahlamontada.net>

(٦) ادوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، ط١، (بيروت، ١٩٨١م) : ١١٧ .

(٧) عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، (مصر، ٢٠٠٥م) : ٣٢ .

(٨) للمزيد، انظر: حسين فهميم، قصة الانثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٨٥م) : ٤٣-٤٤؛ إبراهيم، المصدر السابق : ٣٢ .

الإيجابية التي لا يمكن إهمالها، فقد سجل على هذا النوع من التدوين جوانب سلبية - كما توصلت إليه هذه الدراسة - كان من أبرزها ارتباط معظم الرحالة بمؤسسات دينية أو سياسية استعمارية، كذلك عدم قدرة هؤلاء على التخلص من الأفكار المسبقة، التي تحمل تراكمات مراحل الصراع المرير بين الشرق والغرب، فالمعرفة التي قدمها المرتحل، خضعت لشخصيته وتكوينه الثقافي والديني والاجتماعي، لذا تتطلب عملية كشف خفاياها المعرفية، فهماً وتصوراً شاملاً للأوضاع المحيطة بأحداث الرحلة، ابتداءً من شخصية كاتبها، وحتى طبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية أو الإقليمية على أقل تقدير.

الهوامش والتعليقات :

(١) كلمة يونانية من مقطعين Geo ومعناها الأرض، و raphia ومعناها الكتابة، ومعنى الكلمتين وصف الأرض أو الكتابة عن الأرض، والتي تحولت بعد ذلك في الانكليزية إلى Geography و Géographie بالفرنسية، وعرفها العرب عند اتصالهم بالفكر والمعرفة اليونانية واللاتينية، ولا يقتصر مفهوم الجغرافيا عند الوصف فقط ، بل يمتد إلى التحليل والربط والتفسير أو التعليق ، للمزيد، راجع: يوسف توني، معجم المصطلحات الجغرافية، (القاهرة، ١٩٦٤م) : ١٥٣ ؛ أحمد علي إسماعيل، الجغرافيا العامة موضوعات مختارة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٦م) : ٥-٧ .

- (١٥) شرف، المصدر السابق : ٢٨-٣٠ .
(١٦) للمزيد، انظر:
- Samuel Cooper, A Dictionary OF Practical Surgery, Vol.1, Harper & Brothers, (New York,1863),P.P.265-270.
- (١٧) ل. دولي ستامب، الآراء الحديثة في علم الجغرافيا، ترجمة أحمد محمد العدوي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، ١٩٣٦م) : ٣ .
- (١٨) ابو لُقمة والأعور، المصدر السابق : ٢٩ .
- (١٩) محمود أبو العلا، الفكر الجغرافي، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٩٨م) : ١١ .
- (٢٠) للمزيد، راجع:
- H. F. Tozer, Selections from Strabo, the Clarendon Press,(Oxford,1893),p.p.15, 30.
- (٢١) مأمون الباقر، "مقدمة لاغتيال المجتمع: الاختطاف السياسي من سيرفانتس إلى بيانكورت"، صحيفة البيان، ع ٣٥٨، الثلاثاء ٢١/١/٢٠٠٦م .
- (٢٢) رنيه كلوزيبه، تطور الفكر الجغرافي، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، (دمشق، ١٩٨٥م) : ٣٧ .
- (٢٣) فقدت من هذه الموسوعة الأجزاء من ٦-١٠، لمزيد من الاطلاع على هذه الموسوعة، راجع:
- Diodours of Sicily, the Historical Library of Diodours th Sicilian, translated by G. Booth, ESQ, in two Part, Printed by McDowell, (London, 1814).
- (٢٤) شرف، المصدر السابق : ١٧-١٨ .
- (٢٥) انظر مثلاً:
- Arrian, The Anabasis of Alexander, or, The history of the wars and conquests of Alexander the Great Literally translated, with a commentary, from the Greek of Arrian, the Nicomedian, Translated by Edward James Chinnock, Hodder and Stoughton, (New York, 1884), p.387.
- (٩) الهادي مصطفى أبو لقمة ومحمد علي الأعور، الجغرافية البحرية، ط٢، الدار الجماهيرية، (مصراته، ١٩٩٩م) : ٢٧ .
- (١٠) عبد العزيز طريح شرف (ترجمة)، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، مؤسسة الثقافة الجامعية، (الإسكندرية، ١٩٩٣م) : ١٣ .
- (11) Charles Anthon, the Anabasis of Xenophon, Harper & Brothers, (New York, 1876), p. XVI.
- (١٢) للمزيد عن الموضوع، راجع:
- , Ruined cities of Iraq, Third [Seton Lloyd](#) Edition, H. Milford, Oxford university press, (London, 1945), p.p8-10.
- (١٣) للمزيد عن هذه المعركة، راجع:
- Charles Rollin, the Ancient History of Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians, Meds and Persians, Macedonians, and Grecians, Vol. IV, the Ninth Editio, (London,1823), P.P 172-174.
- (١٣) وللمزيد عن هذه الحملة، انظر ترجمتها المختزلة في: زينوفون، حملة العشرة آلاف الحملة على فارس، ترجمة يعقوب افرام منصور، (الموصل، ١٩٨٥م) .
- (١٤) مؤرخ يوناني ومن أشهر المؤرخين القدماء، جيء به أسيراً إلى روما سنة ١٦٨ق.م، وسرعان ما كسب عطف وصدافة القائد الروماني تسيبيو، إذ رافقه في العديد من غزواته، أما أشهر مؤلفاته فهو كتابه الذي يتكون من ٤٠ جزءاً، ويتحدث عن فتوحات روما وسيطرتها على العالم، للمزيد، راجع:
- Charles Hutton and others, the Philosophical Transactions of the Royal Society of London 1735-1743, Vol. VIII. (London, 1809), p.p. 676-677;
- رونالد ستروميرج، تاريخ الفكر الأوربي الحديث ١٦٠١-١٩٧٧م، ترجمة أحمد الشيباني، ط٣، (القاهرة، ١٩٩٤م) : ٦٩٦ .

(٣٥) عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، (بيروت، ١٩٦٩م : ٢٤٨ ؛ وللمزيد عن هذه المراسلات، راجع:

Bernard de Valux, History of The Missions, Tanslated by Reginald F. Trevett, Hawthorn Books Publisher, (New York, 1961), p.p.51-64 .

(٣٦) علاء محمود خليل قداوي، "النساء الحاكمات في إمبراطورية المغول ٦٣٩-٦٩٣ هـ / ١٢٤١-١٢٩٥ م"، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج٤، مج ٤٦ ، (بغداد، ١٩٩٩م) : ١٥٢ .

(٣٧) للمزيد عن هذه الرحلة، انظر:

Peter Jackson, The Mission of William of Rubruck, (London, 1990).

(٣٨) النسطورية: نسبة إلى نسطوريوس، وهو يشدد على التمييز بين الطبيعيتين الإلهية والبشرية، للمزيد، انظر: أندري دي هالو، "نسطوريوس التاريخ والتعليم"، ترجمة ألبير أبونا، مجلة بين النهرين، ٩٥٤-٩٦، بغداد، ١٩٩٦م : ٢٨٥ - ٣١٣ .

(٣٩) اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب الأبرادعي القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ط١، (بيروت، ١٩٧٠م) : ٦٣١ .

(٤٠) راجع أطروحتنا للدكتوراه الموسومة: "الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية في الشرق الأدنى وعلاقتها بالفاتيكان ١٨٣١-١٩١٤م"، والمقدمة إلى كلية التربية - جامعة القادسية، ٢٠١٠م .

(٤١) للمزيد راجع مثلاً:

Rev. James I. Good, D. D., Famous Missionaries of The Reformed Church, First Edition, The Sunday - School Board of The Reformed Church, (United State, 1903).

(٢٦) فيج جي. دي، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، مراجعة بهجت رياض صليب، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٨٢م) : ٣ .

(٢٧) العصر الهلنستي: غلبت عليه الحضارة اليونانية - الرومانية وهي امتداد للحضارة الهيلينية بعد وفاة الإسكندر، وامتازت بالجمع بين الفكر الشرقي الغربي، وتعددت فيها المدارس العلمية والفلسفية شرقاً وغرباً، وأدرجت مولد المسيح (ع) واختلطت بالآباء والمدارس المسيحية الأولى، للمزيد، انظر: حسين الشيخ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة (الرومان)،

ج٢، (الإسكندرية، ٢٠٠٤م) : ٣٩١ .

(٢٨) إبراهيم، المصدر السابق : ٣٦ .

(٢٩) إنجيل متى ١٠ : ١٦-١ .

(٣٠) للمزيد، راجع:

J. J. I. Von Döllinger's, Fables Respecting the Popes in the Middle Ages, Translate Alfred Plumer, Dodd & Mead, (New York, 1872), P.P.127-130.

(٣١) للمزيد، انظر:

D. Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, (London, 1978), P.P.258-303.

(٣٢) للمزيد، راجع: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٩٩٧م) : ١٨٥-١٨٦ .

(٣٣) للمزيد عن هذا المبشر ورحلاته إلى الشرق، انظر: علي أحمد السيد، مشاهدات اودوريك دو بوردونون الفرنسيكاني في الصين (توفي ١٣٣١م / ٧٣١هـ-)، دار المعرفة الجامعية، (الإسكندرية، ١٩٩١م) .

(٣٤) ستيفن رانسيومان، المدنية البيزنطية، الحروب الصليبية، محاضرات ألقاها في كلية الآداب والعلوم، ترجمة أحمد صالح العلي، (بغداد، ١٩٥٦م) : ٢١٠ .

ندوة كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، عرض - نقد - تحليل، للفترة من ٢٠-٢٢ ذو القعدة ١٤١٦هـ، / ٨-١٠ أبريل ١٩٩٦م، إعداد وتقديم عبيد على بن بطي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، (دبي، ١٩٩٦م) : ٧٥-٩٠ .

(٥١) للمزيد عن الحجاج الروس، راجع: يفيم ريزفان، الحج قبل مئة سنة، الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨-١٨٩٩م، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط٢، (بيروت، ١٩٩٣م) : ١٦-٢٧ .

(٥٢) ستامب، المصدر السابق، ص٤؛ أبو العلا، المصدر السابق : ١٣ .

(٥٣) حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٨٩م) : ٢٨ .

(٥٤) للمزيد عن رحلة ماجلان، انظر: Eduard Roditi, Magellan of the Pacific, Faber & Faber, (London, 1972).

(٥٥) Antonio Pigafetta, Magellan's Voyage (A Narrative Account of the First Navigation, Translated and edited by R. A. Skelton (London, 1969) p. 85.

(٥٦) للمزيد عنه راجع: R. Coupland, East Africa and its Invaders, Clarendon Press, (London, 1938), p.42.

(٥٧) للمزيد عن التفاعل في هذا المجال، راجع: Ralf Lerner and Muhsin Mahdi (editors), Medieval Political Philosophy, (New York, 1963).

(٥٨) للمزيد عن هذا الموضوع، راجع: محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ط٢، نهضة مصر للطباعة والنشر، (القاهرة، ٢٠٠٠م) : ٢٩-٣٠ .

(59) Bernard Lewis, "the Mangols, the Turk and the Muslim Polity",

(٤٢) للمزيد، انظر: نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط١، (بيروت، ١٩٨٦م) : ٩٨-١١٣ .

(٤٣) أحد معلمي الكنيسة الأوائل ولد في دالماشيا، عرف بالتكشف والثقافة العالية، أصبح السكرتير الخاص للبابا داماسيوس الأول، وقد انصرف إلى الدراسات الكتابية فقام بالترجمة اللاتينية من العبرية للكتاب المقدس بعهديه، والتي عرفت بال- فولجاتا التي تبناها المجمع التريدينيني في الغرب، للمزيد راجع: Encyclopedia Britannica, Vol. XIII, (London, 1958), p.p.2-3.

(٤٤) للمزيد، راجع: The Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and Holy Land, Translated by Cannon Brownlow, (London, 1892).

(٤٥) للمزيد عن هذه الرحلة، راجع: الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي وداد أبو هدية، (عمان، ١٩٩٢) .

(٤٦) للمزيد عن هذه الرحلة ووجهات النظر المتعددة حولها، راجع: محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧هـ، ط٢، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٢م) : ١٤٤-١٥٢ .

(47) J. Parker, A History of Palestine from 135 A.D to Modern Times, (London, 1949), p.148.

(٤٨) انظر مثلاً: A. Asher, The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Vol. I, (London, 1840).

(٤٩) للمزيد راجع: بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، (بغداد، ١٩٤٥م) .

(٥٠) للمزيد عنها راجع: حمد محمد جمعة بن صراي، "منطقة الخليج العربي في رحلة بنيامين التطيلي"، في

(٦٧) للمزيد، انظر: صلاح الدين الحافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٨٢م) : ٣٩-٤١ .

(٦٨) هو ابن السلطان العثماني محمد الثاني الذي نازع أخاه بايزيد الثاني على السلطنة، ولجأ إلى المماليك بعد هزيمته، انظر: محمد بن محمود الحلبي الملقب بابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادر، صنعة محمد أحمد دهمان، دار الفكر، ط١، (دمشق، ١٩٨٦): ١٨١-١٨٢؛ وتم إلقاء القبض عليه من ب. دوبيسون

D'Aubusson زعيم فرسان القديس يوحنا في رودس، والذي أشار على البابا بوجود استغلال جم كأداة لتدمير العثمانيين، وجرى التحفظ على جم في القصور التابعة لهيئة الفرسان في فرنسا لمدة سبع سنوات، وقد حاول السلطان قايتباي أن يجعل من جم إلى جانبه كعامل من عوامل كسب الحرب، غير أن فرسان القديس يوحنا والبابا اتوسنت الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢م)، وجدوا أنه من الضروري للمصلحة العامة المسيحية نقل جم إلى روما ووصلها سنة ١٤٨٩م، واستقبله البابا بحفاوة بالغة، وشكا جم للبابا تصرفات الفرسان وانتهاكهم للأعراف والتقاليد في معاملتهم له كأسير، وطلب من البابا أن يرجعه إلى عائلته في مصر؛ مؤكداً له أنه لن يتعاون أبداً مع الهنغار في محاربة المسلمين أبناء دينه، وقد أدى وجود جم في روما إلى تزايد مكانة ونشاطات البابا الدولية، والذي كان يخطط لبدء حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين، وقد أرسل من أجل ذلك رسائل إلى الحكام المسيحيين يعلمهم فيها بملائمة الظروف لتنفيذ هذه الحملة، وكان قايتباي قد عرض على البابا مبلغ ١٥٠-٢٠٠ ألف دوكات مقابل تسليمه جم، وعندما أغار شارل الثامن ملك فرنسا على إيطاليا، سلمه البابا جم، لكنه ما لبث أن توفي - ويقال

Transactions of the Royal Historical Society 5th. N.18,(London,1968),p.p.49-68.

(٦٩) للمزيد، راجع مثلاً:

A. Steiger, Origin and spread of Oriental Words in European Language, (New York , 1963);

كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، ط٥، دار العلم للملايين، (١٩٦٨) : ٣١٥ .

(٦١) بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، ترجمة وتقديم مي عبد الكريم و علي بدر، ط١، الأهالي للطباعة والنشر، (دمشق، ٢٠٠٠م) : ١٠ .

(٦٢) للمزيد عن هذه التحالفات ومراحلها، انظر: نادية محمود مصطفى(الإشراف العام)، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، ج ١٠، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (القاهرة، ١٩٩٦م) : ٢٣-٢٨ .

(٦٣) راجع: كليفورد أ. بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي دراسة في تاريخ الأنساب، ترجمة حسين علي البودي، مراجعة سليمان إبراهيم العسكري، ط٢، مؤسسة الشراع العربي، (الكويت، ١٩٩٥م) : ١٠٢-١٠٣ .

(٦٤) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٩٩٨م) : ١٧٩ .

(٦٥) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣م) : ١٩٢ .

(٦٦) حسن مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط٢، مطبعة حجازي، (القاهرة، ١٩٣٨م) : ٣٩-٤٠ .

(٧٥) للمزيد، راجع:

William L. Langer, *The Diplomacy of Imperialism*, 2nd. edition, (New York: 1960), P. 30; Evans Lewin, *The German Road to The East*, (London, 1916), P.31.

(٧٦) راجع مثلاً: نيبور، المصدر السابق : ٨٦ ؛ خليل علي مراد، "التنافس الدولي على نفط ولاية الموصل قبل الحرب العالمية الأولى"، مجلة أوراق موصلية، س٣، ع٤، الموصل، ٢٠٠٣ : ١٩ .

(٧٧) راجع مؤلفاته بالالمانية:

Max von Oppenheim, *Der Tell Halaf und die verschleierte Göttin*, Hinrichs, (Leipzig,1908); *Die Revolutionierung der islamischen Gebiete unserer Feinde*, 1914; *Der Tell Halaf: Eine neue Kultur im ältesten Mesopotamien*, BrockhausF.A (Leipzig, 1931).

(٧٨) للمزيد عن الدور الالمانى راجع:

Sykes Christopher, Wassmuss The German Lawrence First Pub, (London, 1936).

(79)Edward Mead Earle, *Turkey The Great Powers and Baghdad Railway*, (New York, 1924),p.15.

(٨٠) للمزيد، انظر: ج. جاكسون، مشاهدات بريطاني في العراق سنة ١٧٩٨م، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد، د.ت) : ٩٨-١٠٠ .

(٨١) للمزيد، انظر: جيمس بكنغهام، رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦، ج١، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد، ١٩٦٨م) : ١٤٠-١٤٣ .

(٨٢) مراد، المصدر السابق : ٢٠ .

(83)I.O.R, L/P + S/10/212, No. 1535. Summary of events in Turkish, Iraq for the month of February 1913.

إنه مات مسموماً - ودفن في بورصة سنة ١٤٩٥م، نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الاتكشارية، ط١، دار الفكر اللبناني، (بيروت، ١٩٩٢م) : ٤١-٤٢ .

(٦٩) للمزيد، انظر: سمير علي الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الايطالية وشرقي البحر المتوسط ١٤٥٠-١٥١٧م، ط١، دار الريحاني، (بيروت، ١٩٨٩م) : ٢٤٥-٢٥١ .

(٧٠) William Miller, *Travels and Politics in the Near East*, Frederick A. Stokes Company, (New York, 1898), p. IX.

(٧١) راجع على سبيل المثال لا للحصر:

John Murray, *A handbook for travelers in Turkey: describing Constantinople, European Turkey, Asia Minor, Armenia, and Mesopotamia*, Third Edition, Murrays Railways Reading, (London, 1854), p.p26-28.

(٧٢) للمزيد عن مثل هذه الرحلات، راجع مثلاً:

Thomas H. Holdich, *Boundaries in Europe and the Near East*, Macmillan & Co., Limited, (London, 1918).

(٧٣) راجع ترجمة هذه الرحلة: ليونهارت راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، (بغداد، ١٩٧٨م) .

(٧٤) للمزيد، راجع: كارستن نيبور، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين الأمين، مراجعة وتعليق سالم الآلوسي، (بغداد، ١٩٦٥م) : ١١-٢٥ ؛ راوولف، المصدر السابق : ١٩٢-١٩٣ ؛ ج. أ. اوليفيه، رحلة اوليفيه الى العراق ١٧٩٤-١٧٩٦م، ترجمة يوسف حبي، (بغداد، ١٩٨٨م) : ٩٤ .

رقم البحث ١٧، الصفحة ٢٩٦-٢٧٠، تاريخ الوثيقة

٢٨ ذي الحجة ١٢٨٤هـ؛

Moshe Mào, Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861, (Oxford,1968), PP.190-191.

(٩١) للمزيد، راجع مثلاً:

Gregory L. Freeze, "Russian Orthodoxy: Church, people and politics in Imperial Russia", in Dominic Lieven (ed), The Cambridge History of Russia, Vol II, Imperial Russia 1689-1917, Cambridge University Press, (New York, 2006), P.P.284-300.

(٩٢) للمزيد راجع:

Charles Clermont Ganneau, Archeolgiel Researches in Palestine During the Years 1873-1874, Translated by Aubrey Stewart, Published for the Palestine Exploration Fund, (London, 1899), pp. IV-VI.

(٩٣) للمزيد عن حالة الصراع الاستعماري بين الدول

الأوربية، راجع مثلاً:

M. S. Anderson , The Great powers and the Near East 1774-1923. Documents of Modern History, (London, 1970); Duggan, S.P.H. the Eastern Question A study in Diplomacy (New York, 1970); H. Temperley, and L.M. Penson, Foundations of British Foreign Policy From, pitt (1792) to Salisbury (1902), 1792-1902 (London, 1966).

(٩٤) للمزيد، راجع: يوليوس اويتنج، رحلة داخل

الجزيرة العربية، حرر أصله بالألمانية كرسيتين و اوفه

مفلن، ترجمة سيد فايز السعيد، دار الملك عبد

العزيز، (الرياض، ١٩٩٩م) : ١٣-١٤ .

(٩٥)فران س. جوندورم، رحلة إلى مصر، الترجمة

للاتكليزية مارينا ميتلكو، الترجمة للعربية روشايديت

(٨٤) للمزيد راجع: نوري عبد البخيت، "رويا ومشروع

سكة حديد بغداد"، مجلة المؤرخ العربي، ع١٥، بغداد، ١٩٨٠م : ٤٩ .

(٨٥)رتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر

والحجاز، ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ،

ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٤م)

: ١٥ .

(٨٦) الطاهر أحمد مكي، "أول رحالة اسباني يزور العالم

العربي في مطلع القرن التاسع عشر"، مجلة الفكر

العربي، ع٥١، يونيو/ حزيران ١٩٨٨م : ١٨٨-١٨٩ .

(٨٧) للمزيد عن هاتين الرحلتين، راجع: سعيد ابن

الاحرش (إعداد)، مكة المكرمة وفقاً لتقرير رحلتين

اسبانيتين في القرن التاسع عشر، رحلة Domingo

Badia ورحلة Urrestarzu Francisco، بحث

مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية،

مطابع جامعة أم القرى، (د.م، ١٤٢٦هـ) .

(٨٨) عن وضع الطوائف المسيحية والصراع فيما بينها

على الامتيازات في الأماكن المقدسة، راجع: رودولف،

رحلة الأمير رودولف إلى الشرق (مصر والقدس)،

ترجمة ودراسة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ج٣،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٦٦م) :

٣٩ .

(٨٩) راجع مثلاً : كارين ارمسترونج، القدس مدينة

واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني،

دار سطور، (القاهرة، ١٩٩٨م) : ٥٦٥-٥٦٦ .

(٩٠) للمزيد راجع مثلاً : أرشيف رئاسة الوزراء

باستانبول، دفتر مهمة ٢٥٤، رقم البحث ١٨٣،

الصفحة ١٣٧، تاريخ الوثيقة أوائل رجب ١٢٥٧هـ؛

أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، دفتر مهمة ٢٦٢،

الملفات، ملفان بالرقمين KV/2/1118 و KV/2/1119 عن هاري سانت جون بروجر فيلبي، ولم أستطع الوصول إلى هذه الملفات رغم الجهود المبذولة في سبيل ذلك، راجع:

<http://ejabat.google.com>

(١٠٣) شارل ديدبيه، رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م، ترجمة وتقديم وتعليق محمد خير البقاعي، دار الفيصل الثقافية، (الرياض، ٢٠٠١م) : ٢٢-٢٣؛ راجع المذكرة التي أرسلها الضابط الفرنسي لويس دو كورانسي إلى وزير خارجيته في: لويس دو كورانسي، الوهابيون تاريخ ما أهمله التاريخ، ترجمة مجموعة من الباحثين، رياض الرئيس للكتب والنشر، (د.م، د.ت) .

(١٠٤) تشارلز تشرشل، جبل لبنان عشر سنوات إقامة ١٨٤٢-١٨٥٢م، دراسة لديانة وعادات وتقاليده أهل الجبل، ترجمة فندي الشعار، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٨٥م) : ٥-٦ .

(١٠٥) للمزيد عنه انظر:

N. N. Lewis, "Churchul of Lebanon", the Middle East Studies, Vol. XL, 1953, P.P 217-223.

(١٠٦) للمزيد عن نشاطاته في لبنان، انظر:

Caesar E. Farah, Fiscal Politics as a deterrent to Administrative Amelioration in Ottoman Mount Lebanon, (Istanbul, 1989), p.p360-361.

(١٠٧) ادوارد حنين، " الطائفية في لبنان نشأتها وحقيقتها"، محاضرة أقيمت في الندوة اللبنانية في ١٩٥٠/٦/٢٢ : ١٠٩ .

(١٠٨) للمزيد راجع رسالة الأمير ملحم الشهابي إلى الأمير أمين بشير الشهابي حول الكونت اونفروا في ١٦/ أيار- مايس ١٨٤٠م، في: عبد العزيز سليمان نوار، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧-

هايل وحمود وجيه، طبعة خاصة، (مصر، ٢٠٠٣م) : ٧.

(٩٦) للمزيد عنه راجع: يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العربية، (القاهرة ، ٢٠٠٦) : ٦٤٩-٦٥٠ .

"Edward Sachau", Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Cambridge University Press, (London, 1931), 242-243.

(٩٨) "رحلة عبر الجزيرة العربية"، مجلة الدارة، ع ٣، الرياض، ١٤٣٢هـ .

(٩٩) للمزيد راجع الرحلة: فورستر سادليير، رحلة عبر الجزيرة العربية، ترجمة عيسى أمين، إشراف وتحقيق سعود الجمران العجمي، ط ٢، (الرياض ٢٠٠٥م) : ٢٣-٣٣ .

(١٠٠) للمزيد، راجع: زكريا كورشون، نجد والإحساء في الحكم العثماني، مجمع التاريخ التركي، (أنقرة، ١٩٩٨م)، ص ٤٧؛ عبد الله إبراهيم العسكر، "رحلة بلجريف معربة"، صحيفة الرياض، ع ٢٧٦٥١، ٢٠٠٢/٥/٢٢ .

(١٠١) راجع:

R. L. Bidwell, "Lewis Pelly (1825-1895)", in Report on a Journey to Riyadh in Central Arabia by Lewis Pelly, (New York, 1866), p. VII.

(١٠٢) راجع مديحه في آل سعود: هاري سانت جون فيلبي، حاج في الجزيرة العربية، ترجمة عبد القادر محمود عبد الله، مكتبة العبيكان، ط ١، (الرياض، ٢٠٠١م) : ١٣-١٦، ١٨٠-١٨٥، وقد أشار أحد المواقع الالكترونية إلى أنه تم الإفراج من مكتب السجلات العامة والأرشيف القومي ببريطانيا، صباح الخميس ٢٨ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١٠م، ولأول مرة عن ٣١١ ملفا عن العملاء والنشاط الاستخباراتي، كان مقرراً الإفراج عنها سنة ٢٠٠٥م، ومن بين تلك

of the studies over the successive periods; hence, there arose the importance of the present study.

The study, which draws heavily on original sources, falls into an introduction and three sections which deal with these travels respectively. The sections begin tackling the pioneers who started the exploration of the East – the mysterious world – through the interest in the universe and its philosophy. Then, they move to the development of the European thought, viz. the Middle Ages , or the age of faith, during which the East became an enemy and a competitor after the spread of the Arab Islamic civilization; thence, appeared the East/West ideology that is related to the self/other binarism. The third phase dealt with in the sections of the study is that which tackles the East as an arena of the political, economic, and religious competition. European travelers of various backgrounds, nationalities , and objectives started roaming the East; politics intermingled with religion and exploration. Each phase is characterized by specific features represented partially by the travellers.

١٩٢٠م، جامعة بيروت العربية، (بيروت، ١٩٧٤م) : ٣١٤ .

(١٠٩) ليون كاهون، رحلة إلى جبال العلويين عام ١٨٧٨م، ترجمة مها احمد، تقديم سهيل زكار، ط٢، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، (دمشق، ٢٠٠٤م) : ٣٧ .

(109) Derek Hopwood, the Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914, (Oxford, 1969), p.15.

(١١٠) للمزيد، انظر: قسطنطين بازيلى، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، دار التقدم، (موسكو، د.ت) .

(١١١) للمزيد، راجع مقدمة مترجم الرحلة في: وليام جيفورد بالجريف، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣م)، ترجمة صبري محمد حسن، مج ١، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠١م) : ٥-٨ .

Abstract

The development in the concept of the East in European Thought as Exemplified by European Explorers' Writings

Over successive historical eras, the East witnessed the influx of great numbers of European travelers who tried their best to unravel its talismans and secrets. The East always represented mystery and magic for the Europeans. Despite the numerous studies that tackles the European travelers, they neglected important and basic sides of these travels, especially the development of the concept of the East in the European thought. In addition, these studies lacked a comprehensive view because of the difficulty to access all the travels and the intermingling